المستقبل - الاحد 14 كانون الثاني 2007 - العدد 2501 - نوافذ - صفحة 12

العراق وفلسطين ولبنان:
"فوضى بناءة" مضادة

تعيش المنطقة العربية من العراق الى لبنان تداعيات سقوط نظام صدام حسين، ووصول حركة حماس الى السلطة، واغتيال الرئيس رفيق الحريري مروراً بحرب تموز 2006، قبل الاجتياح الاميركي للعراق، كان صدام حسين هو المايسترو الوحيد في العراق يمسك بمصير العراقيين وبالتناقضات العرقية والمذهبية الكامنة. فجاء المحتل الاميركي وحلّ محله مفجراً تناقضات عرقية ومذهبية تحت شعارات الديموقراطية والحرية. وفي ضوء ماهية الديموقراطية الاميركية "المصدرة" وازدواجية المعايير الاميركية على مساحة العالمين العربي والاسلامي، فقد الاميركيون دورهم هذا، ليتبين ان هناك مايسترو ايراني بدأ يتحكم في حاضر العراق وربما في مستقبله ويتطلع في الوقت نفسه الى فرض نفوذه في الشرق الأوسط عبر برنامجه النووي والتحكم بنفط بحر قزوين ومضيق هرمز. وبالتدريج، تمكن هذا المايسترو، الذي استفاد من قضاء الاميركيين على نظام صدام حسين وعلى طالبان، من ان يصبح اقوى لاعب على الساحة العراقية، من خلال ما يحكى عن دعم طهران للشيعة وجماعات عراقية مسلحة، أو ما هو متوقع من انقسام العراق الى فيدراليات مذهبية وعرقية، يكون للشيعة نصيب الاسد فيه. صحيح ان الوجود العسكري الاميركي لا يزال على حاله في العراق وقد يتعزز، الا ان ذلك يحدث في ضوء خسائر بشرية فادحة وتكلفة مالية ضخمة (110 مليارات دولار خلال عام 2006) وغياب مشروع سياسي اميركي هناك حتى الآن وأفق للخروج من الازمة العراقية.

من هنا، تمكن المايسترو الايراني من ان يلقي بظله على الانتخابات التشريعية الاميركية ويتسبب في خسارة بوش، وكذلك التأثير على تقرير بيكر - هاملتون حول ضرورة فتح الإدارة الأميركية الحوار مع كل من إيران وسوريا. ووصل الامر ان عرضت طهران على الولايات المتحدة المساعدة لإخراجها من المستنقع العراقي. ولعل تصريح الرئيس الاميركي في 20 كانون الاول 2006 بأن "أميركا لا تكسب الحرب في العراق ولا تخسرها" دليل على مأزق المشروع الاميركي الذي كان يتحدث عن النصر في العراق واعطاء الشعب العراقي الحرية والديموقراطية. ازاء كل هذه التطورات الدراماتيكية، تحاول الولايات المتحدة منذ فترة تعويض فشلها في العراق عبر التركيز على فلسطين ولبنان، ولنا عودة الى هذا الموضوع.

وعلى المقلب الاخر، كان النظام السوري حتى نيسان 2005 المايسترو الوحيد بلا منازع في لبنان. لكن منذ ان اضحت الولايات المتحدة جارة لسوريا بعد احتلالها العراق، شعر النظام السوري بالخطر على وجوده، ما جعله يشن حرباً استباقية لمنع سقوطه. كان ملفا العراق وفلسطين اوراق مقايضة في يد سوريا، التي اعتقدت ان التوتر في علاقاتها بواشنطن منذ عام 2003 هو بمثابة سحابة صيف يمكن تجاوزها ومقايضة الاميركيين حول دورها في المنطقة، وفي مقدمها وجودها العسكري والسياسي في لبنان. كانت المفاجأة بالنسبة الى السوريين ان الاميركيين الذين اتهموهم برعاية الإرهاب في العراق والاستفراد بلبنان ودعم حزب الله والمنظمات الاسلامية الفسطينية، اعلنوا عن فك الارتباط بين كل الملفات التي كانت سوريا تمسك بها، ولم يتكرثوا بفتات التنازلات

التي قدمها لهم النظام السوري في ما يتعلق بالعراق. من هنا، عمل السوريون بجد على خلخلة الوجود الأميركي في العراق عبر ما قيل حول "تصدير" الإرهابيين الى هذا البلد، ودعم حزب الله وحماس والجهاد الاسلامي للوقوف في وجه اميركا الساعية الى منعهم من لعب دور المايسترو الأحادي في لبنان وفلسطين، او رفضها الدخول معهم في مفاوضات حول تقاسم الأدوار في المنطقة.

عقب صدور القرار 1559 وبالتالي التمديد للرئيس لحود، ثم اغتيال رفيق الحريري في شباط 2005، وجد الاميركيون ان الفرصة اصبحت سانحة للضغط على دمشق ومحاصرة نظامها واخراجه من لبنان، فرفعوا مرة اخرى شعاري الحرية والديموقراطية للبنان، ثم اجبروا سوريا على الخروج من هذا البلد، معتقدين ان اضعافها وعزلها عربياً ودولياً سيجبر النظام السوري على تقديم تنازلات في شأن العراق والكف عن التدخل في الشأنين اللبناني والفلسطيني. لكن سوريا عادت بعد فترة على خروجها من لبنان وتمكنت من النفاذ من عزلتها الدولية والعربية عبر البوابة الايرانية متوجة تحالفها مع طهران بالمعاهدة الدفاعية في حزيران 2006. فنشأ عن ذلك مايسترو واحد ايراني ـ سوري، لا يناهض المايسترو الاميركي العاجز ومشروعه في العراق فحسب، بل يلاحقه على مساحة المنطقة، من الخليج الى فلسطين ولبنان ـ كل ذلك بالتزامن مع الصراع الاميركي ـ الايراني حول مستقبل ايران النفطي والغازي وما هو متوقع منه في بحر قزوين ومد انابيب النفط، فضلاً عن مساعي طهران لامتلاك التكنولوجيا النووية ولعب الدور الرئيسي في الشرق الأوسط وحماية نظامها. كانت منطلقات المايسترو الايراني في المنطقة هي المفاعل النووي والاصرار عليه في وجه الضغوط الأميركية والأوروبية. أما المنطلقات السورية، فتمثلت بإعادة إحياء حلفائها وجماعاتها خلف قيادة حزب الله لإسقاط حكومة السنيورة وتعطيل المحكمة ذات الطابع الدولي والإمساك بالملف الفلسطيني عبر حماس وقيادتها التي تتخذ من دمشق مقراً لها. والهدف من تسخين هذه الملفات، ان ترغم سوريا الولايات المتحدة على إعادة فتح الحوار معها، وفي الوقت نفسه العودة الى المفاوضات مع اسرائيل التي تعرقلها واشنطن، وترفضها اسرائيل، لأن ذلك سينقذ دمشق من دفع ثمن سلوكها. وقيل ان بيكر اقترح استخدام نفوذ سوريا في العراق مقابل منح دمشق فرصة العودة الى لبنان، ولو سياسياً.

ترجمت الحرب المضادة الإيرانية ـ السورية للمشروع الأميركي بتأجيج المايسترو الايراني ـ السوري الأوضاع ضد الاميركيين في المنطقة تحت شعار تضافر المسلمين والقوى الوطنية. لقد اعلنت القيادات الايرانية صراحة ان صراعها ضد المحور الاميركي يقوم على تحريك المنطقة، وبخاصة في فلسطين ولبنان. من هنا عملت على استقطاب الفلسطينيين وتجييشهم تحت شعار "إزالة اسرائيل من الوجود" وتصحيح خطأ تاريخي، وهو الذي طرحه احمدي نجاد، فيما زادت ايران من دعمها العسكري والمالي والمعنوي لحزب الله. وفيما اعتقد الاميركيون ومعهم الاوروبيون ان "ثورة الأرز" في لبنان ستنتصر لا محالة، وان المحكمة ذات الطابع الدولي حول اغتيال الحريري كفيلة بتطويع النظام السوري او إخراجه من تحت المظلة الايرانية، وان محمود عباس سيتمكن من خلال انتخابات ديموقراطية الامساك بالسلطة والحد من تنامي قوة حماس والحركات الاصولية في فلسطين، اذ بهم يفاجأون ان الممانعة السورية اثمرت في إنعاش حلفاء سوريا في لبنان وإحياء دورهم وتمكنهم من تعطيل مسيرة الدولة اللبنانية والمحكمة ذات الطابع الدولي بذرائع شتى، كذلك الحال، فوجئوا بكون الاصولية الاسلامية في فلسطين لم تلتهم مقاعد المجلس التشريعي فحسب، بل رئاسة الحكومة الفلسطينية والشارع الفلسطيني كذلك. وفي العراق، تعطل كل امل في الوصول الى حكومة مصالحة وطنية، في ضوء الانقسامات الداخلية واستمرار المذابح اليومية.

وعلى الرغم مما لحق بلبنان من خسائر فادحة وتداعيات على التماسك الداخلي اللبناني من جراء الحرب الاسرائيلية ـ اللبنانية الاخيرة، فإن صمود حزب الله امام اسرائيل شكل نقطة تحول هامة لمصلحة المايسترو الايراني ـ السوري. فلم يتمكن الاميركيون وحلفاؤهم الاسرائيليون من القضاء على حزب الله، واعتبرت نتيجة الحرب هزيمة شنعاء للمحور الاميركي في المنطقة الهادف الى تقليم اظافر المايسترو الايراني ـ السوري عبر القضاء على الحد الجنوبي لما سمي القوس الايراني (حزب الله)، ثم تطويع او ترويض او القضاء على حركة حماس في فلسطين والنظام السوري، تمهيداً للقضاء على المايسترو الاكبر القابع في الخليج. لقد دعا وزير خارجية ايران في دمشق القوى الاسلامية والوطنية الى زيادة تحالفها من اجل القضاء على المشروع الاميركي في العراق وفلسطين ولبنان. كما دعا الرئيس الاسد الى ترجمة انتصار حزب الله على اسرائيل سياسياً، وظهر هذا بوضوح عبر محاولات اسقاط حكومة السنيورة والقضاء على المحكمة الدولية، والتدخل المباشر في فلسطين في موضوع تشكيل حكومة وحدة وطنية، ووضع العراقيل امام الحكومة العراقية لتهدئة الاوضاع الداخلية.

وفي وجه مايسترو اميركي غارق في مستنقع العراق وفي تداعيات انتخابات الكونغرس الاميركي، كيف يدير المايسترو الايراني ـ السوري اللعبة في المنطقة، وما هي المعايير المزدوجة التي يستخدمها في ملفات العراق وفلسطين ولبنان؟

في العراق يتبرأ المايسترو الايراني ـ السوري من التدخل في الشأن العراقي، ويقوم في الوقت نفسه بضخ العناصر الاصولية المسلحة الى هذا البلد من الشرق والغرب، ويعمل على تسخين دموي للمواجهات بين فئات الشعب العراقي ومنع المصالحة لهدف واحد هو الحاق الهزيمة بالاميركيين واجبارهم على الانسحاب وترك العراق لقمة سائغة في يده. وفي فلسطين يدعم المايسترو الايراني ـ السوري حركة حماس كقوة عسكرية ـ سياسية ـ شعبية للوقوف في وجه سلطة محمود عباس المستظلة بالدعم الدبلوماسي والسياسي الاميركي والاوروبي والعربي، وآخرها عودة هنية الى فلسطين بدعم ايراني وبملايين الدولارات، التي شكلت الفتيل لتفجير الموقف بين السلطة والحكومة وبالتالي دعوة محمود عباس الى انتخابات مبكرة. وفي لبنان، يقوم المايسترو بالدور نفسه، وهو دعم حزب الله وحلفائه كقوة سياسية ـ عسكرية ضد حكومة السنيورة. ويرفض هذا المايسترو إخراج الامن في العراق (العمليات الإرهابية اليومية) وفلسطين (سلاح حماس والجهاد الاسلامي) والامن في لبنان (سلاح حزب الله) من التجاذبات. في مطلع الحرب الاسرائيلية على لبنان عام 2006، رفضت القيادة الايرانية نزع سلاح حزب الله، فيما تمسك الحزب بهذا السلاح. وهناك في فلسطين من يطالب بمجلس امن قومي لضبط الامن والسلاح، وفي لبنان بسياسة دفاعية تستوعب سلاح حزب الله، وفي العراق بإعادة استيعاب الجيش "القديم" في المؤسسة العسكرية. لكن حزب الله وحماس يرفضان ذلك بدعم ايراني ـ سوري، فيما لم يتحقق شيء في العراق. أكثر من ذلك، يتوعد المايسترو الايراني ـ السوري وحلفاؤه الفلسطينيون واللبنانيون الاميركيين بالحاق الهزيمة بهم في العراق (التصريحات الايرانية الاخيرة حول قدرة طهران على إخراج الأميركيين من العراق)، وعلى الساحة اللبنانية (تصريح خامنئي في 2006/11/14)، وعلى الساحة الفلسطينية كذلك (تصريحات هنية الطنانة في طهران).

يترجم المايسترو الايراني ـ السوري اقواله هذه افعالاً بسيناريوات مختلفة على مساحة العراق ـ فلسطين ـ لبنان تقوم على الاستقطاب والاصطفاف الجماهيريين: في العراق الجميع في شارع دموي مذهبي يسقط فيه عشرات الضحايا يومياً من دون وجود اي افق لمستقبل سياسي في ظل

الاحتلال الاميركي والتناحر الداخلي والتدخل الخارجي؛ في فلسطين هناك انقسام حاد في الشارع اتخذ منحى دموياً بعد دعوة حماس انصارها الى التظاهر ضد الرئاسة الفلسطينية مستندة الى شرعيتها الشعبية التي يشكك فيها خصومها. قابل ذلك نزول فتح الى الشارع ضد ما آلت اليه الامور السياسية والاقتصادية والامنية في ظل حكومة حماس. وفي لبنان نصف اللبنانيين في شارع تفوح منه رائحة المذهبية، مسيرين بدعوة من حزب الله او بتغطية منه لإسقاط حكومة السنيورة التي يعتبرونها "فاقدة الشرعية"، ضد نصفهم الاخر الذي بدوره في الشارع يدعم حكومة السنيورة "بالتقسيط" (تظاهرات متفرقة). ومن المفارقات ان المايسترو الايراني ـ السوري يدعم سقوط حكومة السنيورة واجراء انتخابات مبكرة في لبنان تؤدي الى وصول حلفائه الى السلطة (حزب الله والمعارضة)، تحت شعار "ترك اللبنانيين يقررون ما يريدون بأنفسهم"، مع العلم انه لم يمض على انتخاب المجلس النيابي اللبناني سنة ونصف السنة، فيما يرفض المايسترو الايراني ـ السوري في المقابل انتخابات مبكرة في فلسطين خشية خسارة حماس موقعها في المجلس التشريعي (=نفوذه عليها) وفي الحكومة التي ترأسها، بعدما حققت في الانتخابات الاخيرة اعلى ما يمكن ان تصل اليه من التأييد الشعبي. والحجة هنا، ان المجلس التشريعي حديث التكوين ولم تمض على انتخابه سنة واحدة. ان تصريحات الفصائل الفلسطينية من دمشق حول رفضها الانتخابات المبكرة لا تحدث في العادة الا في انسجام مع الموقف الرسمي السوري. ومن المفارقات ايضا، ان ما يحصل في لبنان والعراق يدل على ان الطائفية (=المذهبية) تقف عقبة في الوصول الى حس وطني ينقذ البلدين مما يتخبطان فيه، فيما تغيب الطائفية عن فلسطين وتتحول القضية القومية الى صراع فئوي دموي في الشارع بعيدا عن الحس الوطني.

وكما راج في لبنان خطاب انقلابي على المؤسسات، وآخر تخويني حول تبعية كل فريق الى مايسترو اقليمي ودولي أديا حتى الان الى سقوط ضحايا بين شهيد وجريح وقد لا تتوقف هذه السبحة، كذلك بدأ يظهر في فلسطين خطاب تخويني ـ انقلابي، عبر اتهامات متبادلة بأن هناك جماعة تنفذ المشروع الايراني وتجعل من فلسطين ساحة للصراع الاقليمي، وجماعة اخرى منخرطة في المخطط الاميركي للمنطقة الهادف الى القضاء على الحركات الاسلامية "الارهابية" وانظمتها "المارقة". ان الدعم العلني اليومي لهذه القوى او تلك في فلسطين أو في لبنان من قبل الايرانيين والسوريين والاميركيين يؤجج الاتهامات المتبادلة وكذلك الصراع. لقد اعلن السوريون عن دعمهم القوى المنتفضة ضد حكومة السنيورة الشرعية، وتوقعت قيادتهم حمامات دم في لبنان على الطراز العراقي نتيجة خروج جيشهم من لبنان واذا ما اهملت مصالحهم الحيوية. كذلك اعلن النظام الايراني عن مساعيه لالحاق الهزيمة بالاميركيين على الساحة اللبنانية. أما الاميركيون والاوروبيون، فتتوالى تصريحاتهم اليومية حول دعم حكومة المالكي والرئاسة الفلسطينية وحكومة السنيورة، وكان آخرها تصريح رايس بأن الادارة الاميركية ستخصص اموالاً من اجل تعزيز قدرات وحدات عباس العسكرية. فهل تصدر هذه التصريحات عرضاً، ام المقصود منها صب النفط على النار؟ وفي ظل كل هذه الاوضاع هنا وهناك، يبقى الافق السياسي للحل كما تراه واشنطن، ان وجد، لا يمر عبر المايسترو الايراني ـ السوري، طهران ودمشق، كما جاء في توصيات لجنة بيكر ـ هاملتون.

ان تسخين المنطقة الى درجة الغليان الدموي يصب في مصلحة المايسترو الايراني ـ السوري لإفهام الاميركي الآخر ان الحرب والسلام في المنطقة انما يمران عبره. فإيران تستفيد من التأزيم للضغط على الولايات المتحدة في شأن ملفها النووي والحصول على اعتراف بدورها القيادي في الشرق الأوسط، او ربما لإعادة تشكيل المنطقة سياسياً وفق مقولة الملك عبدالله الثاني "الهلال

الشيعي". أما سوريا، فتسعى من خلال ذلك الى استعادة دور لها في لبنان والمنطقة سبق وقضى عليه الاميركيون والاسرائيليون ورحب به لبنانيون. لهذا، سيبقى العراق ولبنان وفلسطين ساحة للصراع الاقليمي طالما هناك محور ايراني ـ سوري ومحور اميركي مضاد. لقد اعلن الاميركيون في السابق عن سياسة "الفوضى البناءة" من اجل اعادة تركيب المنطقة على اسس "الديموقراطية" و"الحرية" وفق مصالحهم والشرق الأوسط الجديد الذي يلائمهم. فهل يسعى الايرانيون والسوريون بدورهم الى "فوضى بناءة" لإعادة تركيب المنطقة على اسس اسلامية ـ عربية؟ لقد حذر الملك عبدالله الثاني قبل اسابيع قليلة من حروب اهلية في الدول الثلاث. فهل يتمكن العراقيون والفلسطينيون واللبنانيون من تسوية اوضاعهم بأنفسهم ضمن صيغة "لا غالب ولا مغلوب"، أم يبقى المايسترو الايراني ـ السوري يقاتل الاميركي على ساحات الشرق الأوسط؟ هل يتمكن المايسترو الاميركي من العودة الى الإمساك بخيوط اللعبة من خلال اجراء تعديلات على السياسة الاميركية في العراق، وتقديم دعم اكبر الى حكومة محمود عباس والى حكومة فؤاد السنيورة، بعدما حسم امره في الوقوف خلف الحكومة الصومالية واثيوبيا للقضاء على المحاكم الشرعية في الصومال؟